مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

ISSN: 1112-9751

عنوان المقال:

الخطاب السينمائي الكولونيالي في الجزائر بين الواقع والإيديولوجيا

أ، عماري علال / أ.د. عيسى رأس الماء، جامعة وهران1 ، الجزائر

الخطاب السينمائي الكولونيالي في الجزائر بين الواقع والإيديولوجيا

أ. عماري علال / أ.د. عيسى رأس الماء

الملخص:

تعتبر السينما الكولونيالية في الجزائر، من بين أهم القضايا النّقدية التي أسالت الحبر لدى كثير من النّقاد والباحثين ، كونها تمثل نقطة وصل بين الماضي والحاضر ، من خلال تعريتها للحقائق التّاريخية المغيّبة بقصد أو عن غير قصد ،عن واقع المجتمع الجزائري وكذا الإيديولوجيات السياسية والثّقافية المتّبعة من قبل فرنسا ، في الفترة ما بين 1830 و 1962 ، ولعلّ الدّارس لهذا النّوع من السينما في الجزائر إبّان تلك الحقبة من الزمن، يدرك تمام المعرفة ، فظاعة ما ارتكبته الأيادي الفرنسية الغاشمة في حقّ شعب أعزل، كافح وناضل من أجل نيل حريته واستقلاله .

الكلمات المفتاحية: السينما، الخطاب، الجزائر، الكولونيالية، فرنسا، النّقد، الواقع، الإيديولوجيا، الثورة، الاستقلال.

Abstract:

The colonial cinema in Algeria, which has been researched thoroughly by a lot of critics and researchers, is considered as one of the most important criticism issues it represents a link between the past and the present. In fact, this type of cinema helped people to discover the historical facts that were hidden intentionally or unintentionally. Those who investigate this type of cinema in Algeria during the colonial period will certainly realize the horror of the French hands against unarmed people who fought for their freedom and independence.

Key words: Cinema, Speech, Algeria, Colonial, France, Criticism, Reality, Ideology, Revolution, Independence.

تمهيد:

حفلت سنوات منتصف القرن التاسع عشر بالأحداث الكثيرة والمثيرة ، وأبرز ما ميّزها الحركة الاستعمارية ، التي كان العالم العربي والإسلامي يئنّ تحت وطئتها من المغرب إلى المشرق ، والجزائر من بين أهمّ المستعمرات الفرنسية في إفريقيا السمراء ، التي عانت من ويلات الظلم والدّمار والقهر والحرمان لمدة طويلة ناهزت القرن والنصف من الزمن ، حيث « بدأت مرحلة الاحتلال الفرنسي مع العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي ، بقوة لم تهدأ إلاّ مع نهاية القرن نفسه ، وهذه المرحلة تميّزت بالبطش والعنف والرفض ، والمقاومة الشّديدة والدامية من قبل الشّعب الجزائري فهي مرحلة ثورية ورافضة للمستعمر الدخيل ،مقاومة شعبية عارمة شملت كل المناطق التي طالت إليها يد المحتلين .»(1)

1/ السياسة الثّقافية الاستعمارية في الجزائر :

في بداية الأمر، ركّزت السلطات الاستعمارية آنذاك ، على تشويه الصورة الأصليّة للشعب الجزائري، من خلال طمس كلّ المعالم والسّمات ، التي لها صلة مباشرة بالثقافة العربية الإسلامية والأمازيغية ، وزرع ثقافة هجينة تعمل على تشويه ملامح الهويّة الوطنية والشّخصية الجزائرية الأصيلة ، عن طريق الغزو الفكري و الثقافي ، و بمحاربة التعليم الأصلي ، المتمثل في الزوايا والكتاتيب التي كانت منتشرة بشكل رهيب في كل شبر من أرض الجزائر ، والهدف الرئيس من ذلك طبعا ، هو بسط يد الجهل ، إذ « عمل الاحتلال الفرنسي على تخريب كل ما هو جزائري ، وذلك في سبيل خلق حالة من الفراغ التام، تمكنه فيما بعد من ملئه بالبضاعة التي يشاء ، يقول دبوز محمد علي فاضحا الطموح الكولونيالي : هذه هي الداهية التي أصيبت بها جزائرنا جنس حقود جشع ، لا ثقافة لهم ولا دين ، فأنشبوا مخالبهم وأنيابهم المسعورة فيها ليمزقوها ، وكلكلوا عليها ليمنعوها من التنفس فيزهقوا روحها ، ويقضوا على الإسلام والمسلمين فيها ، وتصير قطعة من فرنسا وامتدادا لها وراء البحر في افريقية هذا هو حلمهم وغـــــــــــــــــــــــــايتهم.»(2)

ولتحقيق نياتهم المبيّتة وغاياتهم المنشودة ، ابتكروا طرقا وأساليب ممنهجة لفرض الثّقافة الفرنسية الأوروبية على أبناء المجتمع الجزائري وعملوا على تقسيمه إلى طبقات اجتماعية وفرق مختلفة، تتباين في مستوى معيشتها ، فرفعوا البعض من ضعاف النفوس وقلدوهم الرتّب والمناصب من جهة ، وتعمدوا تهميش الأغلبية الرافضة لهم وقمعها .

فعمدوا إلى شق الطرق و بناء المستشفيات والمدارس والمعاهد وغيرها من المؤسسات، التي لم ولن تكون سوى وبالا على شعبنا، مازلنا نعاني من تبعاتها حتى يومنا هذا.

« إنّ منهجية الاحتلال في اجتثاث الهوية الجزائرية وإبادة الشخصية الوطنية ، قد اعتمدت أيضا إلى جانب الأساليب الآنفة الذكر على أسلوب فرض الثقافة الفرنسية على الأهالي ... ولكن المستعمر كان من جهة أخرى حريصا على أن لا تستفيد جماهير الشعب من " نعمة " هذا الغزو الثقافي لأنّه سلاح ذو حدين وذلك أنّ رفع المستوى الفكري لدى الشعب ، حتى لو حصل عن طريق اللّغة الفرنسية ، قد يؤدي إلى المطالبة بالتحرر السياسي ، ولذلك فلابد من حصر التعليم في أقلية محدودة ، ولابد من فرض القيود على قبول التلامذة من أبناء الأهالي في المدارس».(3)

2/ السينما في خدمة الاستعمار:

شكّل وصول السينما إلى الأقطار العربية حدثا بارزا في أوساط المجتمع في ذلك الوقت ، كباقي مناطق العالم قاطبة ، حيث استعملت السينما آنذاك كوجه من أوجه الدعاية للشعب ، كما أنّها استعملت كوسيلة من قبل الدول المستَعمِرة ، لتبرير وجودها ودعم سياساتها المنتهجة وكسب الرأي العام العربي، حيث « قام بعض المصوّرين التابعين لمؤسسة لوميير بجولة شملت الجزائر، تونس ، مصر ، فلسطين ، سوريا ولبنان ، حيث قاموا بتجميع العديد من المشاهد واللّقطات، هذا وكان أحد المصورين بمؤسسة لوميير جزائريا ،اسمه فيليكس ميسغيش ولد في عام 1871 ، وحصل على ترخيص بالعمل الاحترافي الدولي كمصور إخباري ووثائقي .هذا وقد تمكن في عام 1897 من أن يلتقط العديد من المشاهد الفيلمية عن الجزائر والتي تضمنت العديد من الجوانب التاريخية والثقافية الفولكلورية ».(4)

وفي هذا الصدد يُجمعُ العديد من الدارسين والباحثين في مجال السينما ـ الكولونيالية ـ الاستعمارية في بلدان المغرب العربي وشمال إفريقيا ، أنّ الغرض الأساس من هذه السينما ، هو تشويه صورة الأهالي les indigènes ـ كما تسميهم فرنسا ـ من خلال تقديم صورة نمطية ، عمدت الهيآت القائمة على السلطة آنذاك على تشكيلها وفقا لمنهجية مدروسة تتميز بالسخرية والاستهزاء والاحتقار ، على أساس النظرة الدونية القائمة على منطق القوة للغالب كما يقول ابن خلدون .

« مع نمو السينيماتوغراف ، الفرجة الموجهة للتسلية ، أصبحت غرابة أفريقيا الشّمالية ، بشكل طبيعي مصدرا للفكاهة ، هكذا نجد عند ميلس Méliès : المسلم المضحك Le Musulman rigolo (1897) ، علي باربويو و علي يغرف الزيت Ali barbouyou et Ali Bouf à l'huile (1907) ، علاقة طبيعية ، ما هي سوى نتاج حالة معطاة للعلاقات الاجتماعية : إذا كان الإنسان المختلف مستعدا للضحك هذا معناه في هذه اللّحظة بالذّات من التاريخ ، أنّه في وضعية دونية ».(5)

يستنتج من ذلك أنّ المستعمر الفرنسي ، قد وجد في الجزائر ، النّيمة الرئيسة لمجمل ما يقدّمه من أفلام سينمائية ، كانت غابات وواحات الجزائر، ووديانها وأنهارها ، وكلّ شبر من ترابها المقدّس لدى أبنائها ، وما تزخر به من عجائب الطبيعة ، في الشّرق والغرب والشّمال والجنوب، مصدرا مهما لتلك العجائبية التي كان يتلقّاها المجتمع الفرنسي والأوروبي عموما ،ويرى فيها سحر الشرق وعبقه كما يقولون، و كلّ هذا الإقبال ، بفضل ذلك التميّز والاختلاف القائم بين بيئتين مختلفتين ، في كلّ شيء تماما، الأمر الذي يدفع بالمشاهد إلى ضرورة تصديق الصورة النّمطية دون معرفة سابقة بها .

و« جميع الشرائط الأولى المصوّرة منذ 1896 ـ 1897 تبرز أحياء " أهلية " للجزائر العاصمة وتلمسان وتونس وسوسة ، في الشوارع يلاحظ وجود سكان ، إنهم هنا لهذا الغرض : لا يتحركون فقط ، وهو ما سيصبح بسرعة ، غير كاف ، لكنّهم يظهرون مثيرون للفضول والغرابة ، مختلفون عن المشاهد الأوروبي ، تشملهم رحمته !...».(6)

وبذلك يمكن القول، أنّ الكثير من الأفلام السينمائية الفرنسية ذات الطابع الريفي، كما يعتبرها النّقاد الفرنسيون ، قد صوّرت بالتّزامن مع ظهور فن السينما مباشرة ولعلّ أشهرها :

« المسلم المضحك Le Musulman rigolo) 1897)، وعلي يغرف الزيت Ali Bouf à l'huile (1907) ، فمن خلال عنوان الفيلم يتبين المحتوى المبني على الإضحاك والسخرية

من شخصية الأهلي. نفس هذا المحتوى يتكرر في فيلمين لكل من جورج بيسكو Georges Pescot وروني كلير René Claire سنة 1920 بعنوان اليتيم L'Orphelin ، حيث تظهر شخصية المزابي الكاريكاتورية من خلال تقديمها في صورة بهلوانية شوهت هذه الشخصية ، ذات الصورة تتكرر في طرطاران دي طرسكان ، حيث تظهر شخصية "طرطاران " غريبة في طريقة ملبسها ، وبالتالي خلق مخادعة ساخرة ، فبمجرد مشاهدة المتفرج لهذه الشخصية تأتيه إلى الذهن صورة الأهلي المضحكة ».(7)

ثم تلت بعد ذلك ، في عشرينيات القرن الماضي ، موجات كثيرة ، لمصورين ومخرجين فرنسيين في الجزائر، عملت هي الأخرى ، على نقل مشاهد مختلفة للرّجال والنّساء والأطفال في المدن والأرياف وكذا الفلاّحين في الحقول والشعاب ، والعمّال في الورشات وغيرها ، مع الاستمرار في نقل نفس الصورة النّمطية للإنسان الجزائري ، و التي تحدثنا عنها سالفا ، « وكان من بين هذا النوع من الأفلام ، فيلم (البلد) والذي قدّمه جان رينوار في عام 1929 والذي اقتبسه من نص لدوبوي مازويل ، حيث قامت بتبنيه السلطات الاستعمارية الفرنسية والتي كانت آنذاك تعمل للاحتفال بتخليد العيد المئوي للغزو الفرنسي للجزائر ، وذلك على النحو الذي جعل هذه السلطات الاستعمارية تعمل على إبراز مشاهد عمليات إنزال قوات الغزو التي أرسلها شارل العاشر إلى منطقة سيدي فرج بالجزائر فيلميا عن طريق الرجوع إلى الماضي ودمجه ضمن الميلودراما المعاصرة آنذاك ».(8)

3/ واقع المجتمع الجزائري من منظور السينما الكولونيالية :

تعتبر السينما الكولونيالية في الجزائر وشمال إفريقيا، بمجملها تمجيدا وتخليدا لروح الاستعمار البغيض وماضيه الأسود، وتكريسا لحضارة الظلم والاستبداد والاستعباد ، القائمة أساسا على منطق السيادة للأقوى ، لحضارة طالما تغنّت بالحرية والمساواة والأخوة (9) والديمقراطية، وغيرها من الشعارات الزائفة التي كانت وبالا على أمتنا والشعوب المستضعفة والمغلوبة على أمرها.

وعطفا على ما سبق ، يلاحظ كذلك ،أنّ هذه الأفلام « تمّ إنتاجها بواسطة الأجانب ، بل وحتى أدوار البطولة في معظمها كان يقوم بها ممثلون أجانب ، وكانت البلدان العربية تستخدم بشكل غالب كخلفية طبيعية واجتماعية لهذه الأفلام بما يضفي عليها طابع الجدة والغرابة أمام المُشاهد الغربي ».(10)

إنّ طمس الهويّة الجزائرية، قد تواصل من خلال استهداف الثوابت الوطنية و الدّينية والثّقافية عن طريق سلب الأنا وتفكيك الآخر كما يقول معظم مفكّريهم ، إذ لن يكتمل الاحتلال والاستعمار للجزائر، إلاّ بوضع اليد كاملة على كل مفاصل المجتمع ، وبذلك تتواصل عملية تصوير الأفلام في فترات متقاربة من عام 1896 إلى غاية فترة ما قبل الاستقلال عام 1957، تاريخ ميلاد السينما الجزائرية المناضلة ، على أيادي الشرفاء من المجاهدين ، أبناء الجزائر وبعض من أصدقاء الثورة ، وعلى رأسهم رونييه فوتييه.

« قبل الثورة التحريرية ، وحتى عام 1946 لم يكن في الجزائر سوى مصلحة فوتوغرافية واحدة ، وفي عام 1947 أنشأ الفرنسيون مصلحة سينمائية أنتجت عددا من الأشرطة القصيرة عرضت ،

وترجمت إلى اللّغتين ، وهذه الأشرطة تنوعت إلى :

ـ أشرطة تتعلق بالآداب.. والعادات الجزائرية . أشرطة وثائقية، أشرطة ثقافية.

. أشرطة حول التربية الصحية .

. أشرطة عن الزراعة وأخرى عن الدعاية السياسية.

أفلام منها: قيصرية 1949 لـ : ج. هويزمان ، الإسلام 1949 ، العيد غير المنتظر 1959 ، أغنى ساعات افريقية الرومانية ، هيبون الملكية ، رعاة الجزائر ».(11)

هذه الأفلام السينمائية المتنوّعة، كانت برمّتها ، تشكّل عملية هادفة ومنظّمة ، لجمع المعلومات الخاصة بعادات وتقاليد المجتمع الجزائري التي تمثّل ثقافته ، وكل ما يتعلّق بحياته اليومية في الأرياف والمدن، بحيث كانت تُصوّرُ في الجزائر وتُبعثُ بعد ذلك إلى فرنسا لإنجاز عمليات التّركيب والتّحميض ، كما تُرفعُ بشأنها تقارير إلى الحكومة الفرنسيّة الأمّ، في باريس ، قصد تحليلها ودراستها والعمل على إصدار القرارات والقوانين من خلالها ، والتّحكم في الثّورات والمقاومات الشعبيّة التي كانت تندلع من حين لآخر ، في كل شبر من أرض الجزائر من جهة ، وتضليل الرأي العام الفرنسي والغربي من جهة ثانية .

« فالغرب المستسلم ظرفيا أمام ضربات الحركات التحررية مع منتصف القرن العشرين ، والرافض لطروحات الفكر ما بعد الكولونيالي الذي فكّك بنيات السيطرة ، اعتمادا على الاختلاف الهوياتي بين : الهنا والهناك ، الأنا والآخر ، راح يشوش على هذا المشروع بنشر تصوّره المضاد لقيم التحرر ، بقيم جديدة تحمل تصوراته ، وتحمي إرثه الاستعماري التاريخي . » (12)

وقد صدق حدس " مالك بن نبيّ " حينما قال : « ولسنا نستطيع، بكل أسف ، وبتأثير أوضاعنا العقلية ، أن نفهم عمل الاستعمار إلاّ ريثما يثير ضجيجا ، كضجيج الدبابة والمدفع والطّائرة ، أمّا حين يكون من تدبير فنان ، أو من عمل قارض فإنّه يغيب عن وعينا ، لسبب واحد ، هو أنّه لا يثير ضجيجا».(13)

فهو يشير حتما وبنظرة ثاقبة ، إلى قوّة تأثير الفنّ عامة والسينما خاصة على توجيه الأمم و الشّعوب ، باستغلالها وتخديرها من خلال تزييف واقعها ، وتشويه عقولها وأفكارها واللّعب كذلك على قيّمها الأصيلة وثوابت هويّتها ومعتقداتها الدينيّة ، وهذا ما عملت على تحقيقه السلطات الفرنسية الاستعمارية بالفعل ، طيلة قرن ونصف من الزمان، في الجزائر، باستعمالها كلّ المحرّمات التي تخالف القوانين والاتفاقيات و الأعراف الدولية ، من أسلحة

عسكرية فتّاكة وأخرى إعلامية أكثر فتكا، كان أبرزها الصورة السينمائية ، التي وثّقت بكلّ صدق وأمانة ، بشاعة الجرائم التي ارتكبت في حقّ الشعب الجزائري الأعزل ، ذنبه الوحيد أنّه طالب بالحرية والاستقلال.

وكانت بذلك السينما الكولونيالية ، في الجزائر وغيرها من البلدان المُستَعمرَة ، لسان حال فئة المثقّفين والطبقة البرجوازية وميسوري الحال المُوالين للاستعمار في فترة الاحتلال ، حيث كانت السينما آنذاك ، تخدم النظام الإيديولوجي للمستعمر الفرنسي ، إذ « يوجد هناك ، من جانب المثقفين في البلدان المتقدمة بعض من العنصرية الكامنة ضد النضال في البلدان النامية من أجل الحرية ... لم ينتظر السينمائيون الجزائريون الأوائل ، من صناع السينما الفرنسية الحلَّ للصعوبات التي يواجهونها في مجال الإعلام لاستعادة الوجه الحقيقي للجزائر المناضلة ، فقد فهموا أهمية الفن السابع في نضالهم باعتباره لغة الإعلام والاتّصال و الوعي الثوري. » (14)

لكنّها اليومَ ـ أي السينما ـ فاضحتُه بلا شك ، من خلال ترسانة الأفلام التّسجيلية والوثائقية التي صوّرت منذ العام 1895 حتى العام 1962 تاريخ انتهاء الاستعمار الفرنسي بالجزائر ، وقد مُلأتْ بها اليوم، مكتبات العالم عامّة ، و الفرنسي خاصة و نزر قليل منه بالأرشيف الجزائري في انتظار الحصول على كل ما يتعلّق بتاريخ فرنسا الاستعمارية في الجزائر ، مما يعني أنّ الحقائق التاريخية لا يمكن لها بأيّ حال من الأحوال ، أن تُنسى أو تُمحى ، في ظل وجود أفضلَ حافظ لها ، وهو الصورة السينمائية.

الهوامش:

1 . صالح لمباركيه : المسرح في الجزائر ، بهاء الدين للنشر والتوزيع ، قسنطينة ، الجزائر ط2 2007، ص : 22.

2 . أحسن ثليلاني : المسرح الجزائري والثورة التحريرية . دراسة فنية وتاريخية ، وزارة الثقافة ـ الجزائر عاصمة الثقافة العربية ـ 2007 ، د ط ، ص : 14 .

3 . أحسن ثليلاني : المسرح الجزائري والثورة التحريرية ، مرجع سابق ، ص : 15.

4 . نائل عزيز تركماني ، أكثم محمود عبد الحميد ، غسان شميط : تاريخ السينما ، وزارة الثقافة ، دمشق ، سوريا ، ط1 ، 2008 ، ص : 120.

5 . دليلة مرسلي وآخرون : مدخل إلى السيميولوجيا (نص ـ صورة)، ترجمة : عبد الحميد بورايو ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د ط ، 1995 ، ص : 146.

6 . دليلة مرسلي وآخرون : مدخل إلى السيميولوجيا (نص ـ صورة)، مرجع سابق ، ص : 146.

7 . سليم بتقة : مقال ، المتخيل الكولونيالي من وهم المكتوب إلى زيف المرئي ـ المضمر والمنظور . مجلة مخبر ، أبحاث في اللّغة والأدب العربي الجزائري ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، العدد 08 ، 2012 ص : 09.

8 . نائل عزيز تركماني ، أكثم محمود عبد الحميد ، غسان شميط : تاريخ السينما ، مرجع سابق ، ص : 121.

9 . الحرية والمساواة والأخوة: شعار تبنته الثورة الفرنسية التي اندلعت في العام1789 واستمرت حتى العام 1799 والتي كانت سببا مباشرا في ظهور الأزمات العالمية الحديثة ، وتبلور فكرة توسع الإمبراطورية الفرنسية عن طريق الاستعمار .

10 . نائل عزيز تركماني، تاريخ السينما ، مرجع سابق ، ص: 121.

11 . بشير خلف : الفنون لغة الوجدان . دراسة . دار الهدى ، عين مليلية ، الجزائر ، د ط 2009 ، ص : 274/ 275 .

12ـ محمد شرقي : قراءة في فيلم معركة الجزائر ، من منظور جدل : التيمة ، الشكل ، التصنيف الأنواعي ـ مقاربة جمالية سينمائية ـ مجلة "جماليات" العدد 01 ، شتاء 2014 ، ص : 133 ، 134 .

13 . مالك بن نبي: مشكلات الحضارة ـ ميلاد مجتمع ـ ج 1، شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الوعي للنشر والتوزيع، ط 1، 2013، ص: 87.

14 – Rachid boudjedra, Naissance du cinéma algérien, François Maspero, paris, 1971, p : 43.